وداعًا قرن الأفراح والأتراح

خطأ فى الحساب ذاع وشاع ، لكنه صار مقبولاً بغير نزاع : أن القرن العشرين بدأ فى أول يناير عام ١٩٠٠ ! . فى المنطق الرياضى الصحيح ، كانت بدايته فى ١/١/١٩٠١ م . وهكذا فى كل ما مضى وما يأتى من قرون .

وخطأ فى الاعتقاد سَرى فى البقاع ، لكنه وجد آذانًا تصغِى للسماع ، بلا انقطاع ، وربما تتوهم الاقتناع : أن أول القرن من الزمان ـ أى قرن ـ تصحبه حتماً كارثة ، أو معجزة ، أو واقعة مفزعة ، وربما رجَّة من علامات يوم القيامة!.

خطأ واضح ، ودَجَل فاضح ! ، والدليل : هذا الخطأ الحسابى الشائع المقبول ، مع نظرة فاحصة متأنية لا تحتاج إلى فطنة مفرطة وذكاء شديد ... فالأحداث الكبرى والاختراعات المُثْلَى ، والكوارث العُظمى فى تاريخ العالم ـ البشريةمنها ، والطبيعية ، أو فوق الطبيعية ـ لم ترتبط أبدًا باليوم الأول ، ولا الثانى ، ولا الثالث من بداية كل قرن ، سواء فى التقدير المغلوط ، أم بالحساب الرياضى المضبوط . وحتى ميلاد المسيح عليه السلام ، الذى يتخذه التأريخ الغربى مبدأ ارتكاز فى الحساب السنوى والتقويم ، مختَلَف فيه كل الاختلاف: فى اليوم ، هل هو الأول من يناير ، أم الثالث ، أم السابع ؟ ـ وفى

السنة ، هل هى الرابعة ، أم الخامسة ، أم الثالثة ، أم السابعة قبل التاريخ المعروف الآن والمألوف ؟ ... ثم إن أمماً وشعوبًا كثيرة على الأرض لا تُؤرخ بهذا التقويم .

أمر آخر يلحق بهذا .. ويجب الالتفات إليه ، والنظر فيه : أن عالمنا المدرَك والمنظور ، هذا الكون الفسيح ـ بعوالمه وكواكبه ونجومه وبلايين مجراته ـ تحكمه قوانين لا تخضع لأفكارنا ـ نحن البشر المغرورون ـ ولا تتبع نظرياتنا ، وتخَرُّصاتنا، وأهواءنا ، ومخاوفنا ، أو رغائبنا .. وأوْلى بأبناء وأجيال القرن العشرين ، قرن القفزة العلمية الهائلة ، والصحوة الفكرية المتفائلة ، أوْلى بهم ـ وهم أجدر من غيرهم ـ أن يطرحوا أوهام الخرافة ، ويلتمسوا مراشد المنطق ، وأن يضعوا عن عقولهم غياهب الظن ، ويَدَعوا ـ باستنارة ـ وساوس الإنس والجن .. فإن الظن لا يُغنى من الحق شيئاً .

والأقرب إلى النفع والصواب ، أن « نُفَتِّش » فى نسيج هذا القرن المودّع ، وأن ننقب فى « ذاكرة » الليالى والأيام الماضيات ، وفيها رصيد ضخم من الطيب الرائع والمتألق الناصع ، وكذلك فيها الخبيث الغثيث والرثيث . إن « نسيج » هذا القرن ـ فى معظمه ـ ثمين متين، لن يَبْلَى بسهولة ـ وإن تَقَادَم ـ ولن يتلاشى، وإن اهترأ ... فهو قرن بالأحداث الكبرى ملىء ، وبالاختراعات المثْلَى وضىء ، وبالكوارث العظمى كظيظ .

فيه تحقق ـ بتقدير السابقين ـ ما يشبه المعجزات : الطائرات والنفاثات الأسرع من الصوت ، والوصول إلى القمر ، والتنقل بين الكواكب ، والغواصات الذرية المتجولة فى أعماق البحار والمحيطات .. الهجرات البشرية المستمرة الكبيرة ، والرحلات السياحية عبر العالم كله بالملايين .. لم يسبق فى تاريخ القرون الماضية من حياة الإنسان على هذا الكوكب ، أن تناقص الإحساس بتقدير الزمان والمكان ـ على الأرض ـ وانكمش بمثل ما هو عليه الآن .. تطلعات الشعوب والجماعات والقبائل ـ مهما صغرت عدداً ، أو بعدت موقعاً ـ إلى مزيد ومزيد من العلم ، والمعرفة ، والرخاء ، والحرية .. التقاء الثقافات وتشابك الحضارات .. السرعة فى انتقال الخبرات ، والاستفادة من توالى الاكتشافات والاختراعات ، وتطور الأجهزة والصناعات ، وتحسين نظم السياسة والتجارة والاقتصاد واستثمار الأموال .. ابتكار وسائل نقل المعارف ، والآداب ،والعلوم، والفنون ، والتقاء بلايين البشر فى وقت واحد ، فى

ساعة واحدة ، لمشاهدة سباقات ومباريات الرياضة والألعاب ، وهى تجرى فى تلك الساعة ، وكأنهم على « بساط الريح » ، أو « يسخِّرون » الجن، أو يضعون فى إصبعهم « خاتم سليمان» ، كما كانت تحكى الجدة العجوز ! .

إنه قرن حاشد حافل ، متخم بالبدائع والروائع ، بالمِراح [1] والأفراح ، وأيضاً بالأحزان ، والمحن ، والأشجان . تماماً كما يحدث فى حياة كل إنسان. وما الأيام والشهور والأعوام والقرون ، إلا « أوعية » يُختزن فيها ما ينال الناس والأمم والدول والشعوب ، من خير أو شر ، من حَسَن أو قبيح ، أو ما يصنعون هم فيها من أعمال صالحات ، أو ما يقْتَرفون فيها من آثام مهلكات. أما الزمن ـ فى ذاته ـ فهو محايد ، لا يُكابِد ولا يكابِد ! .

لقد أغنانا ـ مشكوراً ـ هذا القرن فى تناوله ، أو بالأحرى .. أغنَتْنا أحداثه ووقائع الأيام فيه ، عن معاناة التجزئة والتقسيم ، لتيسير التأمل ، والفحص السليم .. فهو فى نصفه الأول ، يختلف كثيرًا عن نصفه الثانى . والأول شهد حربين كبيرتين عالميتين ، تقسمان هذا النصف إلى قسمين ، أو مرحلتين متتابعتين : ما قبل الحرب العالمية الأولى ، وحتى نهايتها (١٩١٨)، وما قبل الحرب العالمية الثانية إلى مختتمها (١٩٤٥) ، ثم النصف الثانى من القرن ، وما شهد من « حرب باردة » بين الكتلتين الكبيرتين (الرأسمالية والشيوعية) وتوابعهما، وهذه مرحلة ، ثم من بوادر انهيار النظام الشيوعى برمته وتداعياته ، وحتى نهاية القرن .

وكما نرى ، فى ملاحظة عابرة : إن كلمة « الحرب » هى التى تحملنا على اختيار هذا التقسيم .. فكأنما النزاع والصراع والعراك هى السمات البارزة الغالبة ، مهما جنح أصحاب النيات الطيبة إلى السلام ، ودعا المصلحون الراشدون إلى الأُلفة والوئام . وهذا التقسيم لايخل بتتبع الوقائع ، وتفحص الأحداث فى مشرقنا العربى ، وعالمنا الإسلامى ، لأن العالم كله فى هذا القرن ترابط وتداخل ، وتشابكت مصائره ، بحيث يصعب أن يعثر المرء على منطقة، أو إقليم ، أو قارة فى منأى ـ إلا نادرًا ـ عما يجرى فى مركز الأحداث الكبرى ، ومنابع التغيرات المصيرية الفاصلة .

---

(١) المِراح (بكسر الميم) : شدة الفرح والنشاط .

وشيء آخـــر .. أننا لانـؤرخ ، ولا نستقصى أو نحلل ، على نهج المؤرخين والمحللين .. فللتـــاريـخ رجـــاله ، وللتحليل خبراؤه .. وإنما هـى نظرات من قـريب، واستنباطـات وترجيحات من خـلال مـا بأيدينا من مـراجع ووثائق وبيانات وتقارير متميزة لها قيمتها العلميـة ، والأكاديمية ،ومستواها الموقر الرفيع ، ومصادرها من دول شتى ، وفى لغات مختلفة . ودائماً أبدا:

﴿ فَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ .(١)

وملاحظة مبدئية سـوف نتحدث عنها بكثير من التفصيل فيما بعد : وهى أن هذا القرن ـ العشرين ـ يتسم بالفـردية والجمعية معاً ، وكلٌّ فى مجاله وفى موقعه وبقدراته ..فالأحزاب ،والنقابات ، والمجالس ،والمؤسسات ،والهيئات ، والبرلمانات ... لها دور بارز ـ وأحيـاناً حـاسم ـ فى مسـار الأحـداث، واتخاذ القـرارات ، وتحديد المصـائـر والتحـولات . كما فعل أفـراد بارزون أيضـاً: صـاغوا أو شـاركوا فى صيـاغة مجرى القـرن . وقد نعجب : كيف أن رجـلاً واحداً ـ مثل : لينين ، أو ستالين ، أو ماوتسى تونج ، أو غاندى ، أو نهرو ، أو تيتـو ، أو محمـد علـى جنـاح ، أو هتلـر ، أو دوجـول ، أو مصطفى كمـال

جمال عبد الناصر

نهـــرو

ماو تسى تونخ

(١) سورة يوسف ـ آية ٧٦ .

أتاتورك ، أو أحمد سوكارنو ، أو جمال عبد الناصر ، أو دنج شياوبنج ... وغيرهم كثيرون ـ يقرر مصير شعب بأجمعه (وقد يكون عدد سكانه بمئات الملايين كما فى الهند والصين) ، أو يهدد سلام شعوب (مثل : لينين ، وستالين)، أو يشعل حرباً تجر العالم كله إلى ساحاتها (مثل : هتلر)...

إن دراسة حياة هؤلاء ، أو على الأقل إلقاء نظرة متأنية على تطور تفكيرهم فى محيط بيئتهم المحلية أو الإقليمية أو العالمية ـ كما سنفعل بتيسير الله ـ يفيد أبناء القرن القادم فى تحرِّى الأصلح والأنفع ، والتصدى لكل خبيث ومسىء ، وفى اتخاذ السبل التى تحمى من الشطط ، وتصون فى التجاوز ، وتردع عن الانحراف ... مع الوضع فى الاعتبار ، أن الواقع والوقائع والتغيرات المتلاحقة فى أواخر هذا القرن، أثبتت أن القرارات المصيرية الكبرى، والسياسات الناضجة ذات الرؤية الشاملة الراشدة ، تحتاج إلى فكر وعزائم « رجال » أجلاء، أشداء ، كبار ، افتقدهم العالم فى نهاية القرن ، وهو يبحث فى حيرة عن وضع نظام دولى رشيد وسديد جديد .

لكن « الفردية» مألوفة مقبولة ، بل هى أمر طبيعى مرغوب فى مجالات

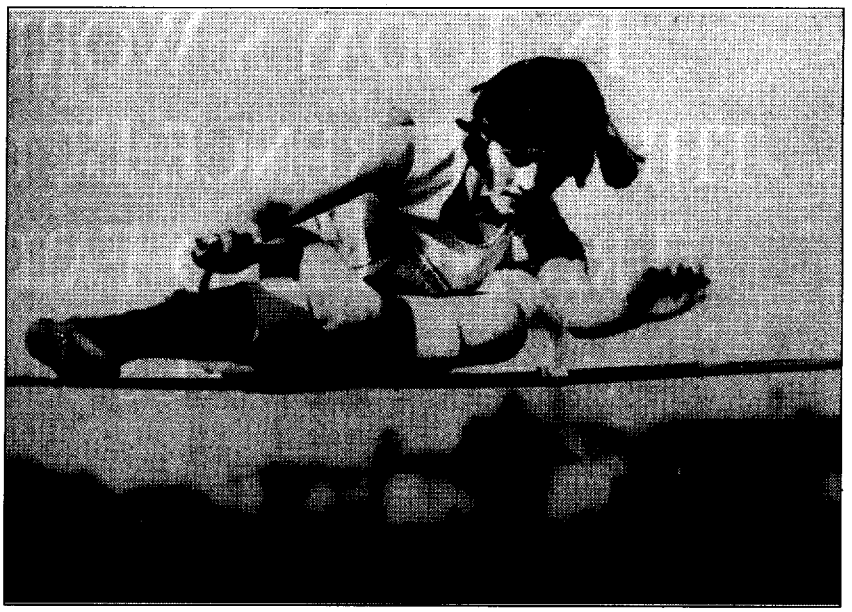

دوجول

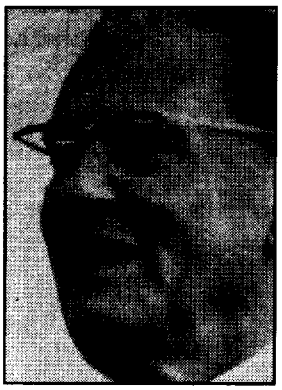

تيتو

كمال اتا ترك

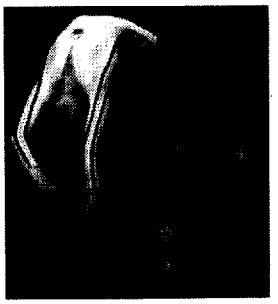

أُخـــر فـى إبداعـات الفكـر والفـن ، والأدب والطـرب ، والموسيقى والشعر ، والاكتشاف والاختراع ، والتجديد والابتكار وبطولات الرياضـة والسباقات .. ولقد كان القرن العشرون حافـلاً مزدحماً ثرياً بالجهابذة والعباقرة والنوابغ فى تلك المجالات، التى سوف نتناولها بشىء من التفصيل بإذن الله .

اعتاد الناس فى تناول التـاريخ ـ كتابة أو مطالعـة ـ أن يتتبعوه مع أسماء «الكبـار » والمشـاهير ، من الأباطـرة والقيـاصرة والملوك والقُـواد والأبطال ، أولئك الذين كان بأيديهم ، وبكلمة تخرج من أفـواههم ، قرار نشوب الحرب ، أو إحـلال السلام ، وعقْـد المعاهدات ، وتقـرير مصـائر الدول والشعـوب . وحَسِبَ الناس ـ حتى أوائل هذا القـرن ـ أن أحـداث الزمـان ووقـائع الأيام مرهونة بإرادة فرد، أو برغبـة مغامر أو زعيم ، يفرض بالرضـا أو بالقهر ما يشاء ، ويشكل حياة البشر كما يشتهى .

ثم سَرَى مع مجرى القـرن العشرين تيـار متجـدد متنام ، أخـذ يقـوى ويشتـد، ويفـرض إرادته ورأيه وسلطانـه ، حتى بلغ ذِروة انتصـاراته لهذا القـرن التاسع من نوفمبر عـام ١٩٨٩ . فى هذا اليوم أسقط الجدار الفـاصل بين شطرىْ برلين ـ المعروف بحـائط برلين ـ الذى كان فى واقع الحيـاة رمزاً يفصل بين عـالميْن ، أو نظامين ، أو منهجين سـائدين فى سيـاسـة الأمم ، وفى دقائق المعيشة اليوميـة للأفراد والمجتمعات والشعوب . إن إزالة هذا الحائط

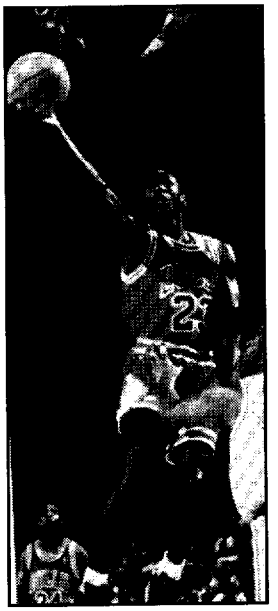

حدث جليل ذو معنى كبير ، وسيظل علامة بارزة فى سجل هذا القرن . لماذا ؟ ومَن أسقطه وأزاله ؟.

لم يكن سقوطه بقرار أو مرسوم . ولم تتم إزالته بسواعد جنود ، أو أسلحة جيوش ، وإنما بأيدى أفراد عاديين من الشعب ، بإرادة مجموعات عشوائية من الكتل الجماهيرية مجهولة الأسماء ، عارية من الألقاب ، اندفعت معاً تلقائيا تعتلى السور وتحطمه ، وكان مجرد الاقتراب منه قبل ذلك يعنى القتل أو الضرب أو الاعتقال المذل المميت . فى هذا اليوم التاريخى المدهش ، كان «الشعب » هو الملِك والمالك ، هو الأمير والآمر ، هو المثير والثائر ، هو البطل والقائد والزعيم. اندفع متحديا الخوف ، والقهر ، والموت . ركب السور ـ سور برلين ـ وهو يغنى ، وحطمه وهو يضحك ، ثم سار الليل كله بين شرق برلين وغربها ، فرحاً يمرح ، يرقص ويمزح ، وقد فعل « المستحيل » ، ووضع ببساطة شديدة بصمة تشبه المعجزة . أحس أنه أطاح بيديه حواجز الرعب والقهر والإذلال ؛ فسقطت مع الحائط على الفور

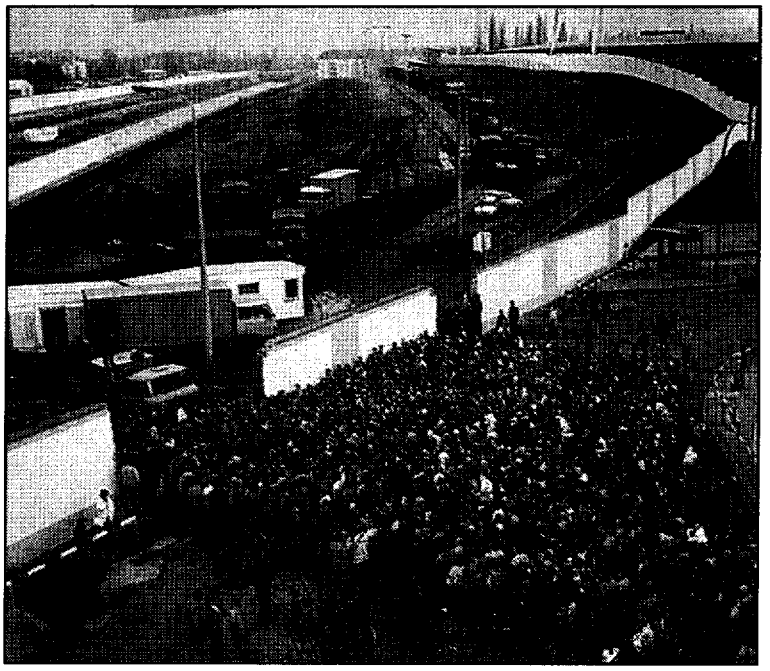

فى ليلة تاريخية (٩ نوفمبر ١٩٨٩) اندفعت الجماهير تلقائيا وبشجاعة أذهلت العالم تحطم سور برلين رمز القهر والاستبداد وبه سقطت أنظمة للحكم بأكمله فى أوروبا الشرقية ومعها الاتحاد السوفييتى.

معظم سياسات واستراتيجيات وأسلحة ، وتهديدات الحرب الباردة بين أوروبا الغربية وأمريكا من جهة ، وروسيا الشيوعية وكتلتها الشرقية من الجهة المقابلة ، وليس هنا مجال المفاضلة بينهما ، لكن العالم كله كان متأثراً ـ على نحو مباشر ، أو غير مباشر ـ بالصراع الذى كان دائراً بينهما . ما معنى ذلك ؟ .

معناه أن القرن العشرين أبرز ـ بلا مداهنة ولا مواربة ـ قيمة الشعوب ، كأفراد وجماعات ، ووضعها فى موضعها الجديد الصحيح ، أو نبَّه بعضها لتأخذ حقها ومكانها اللائق الكريم . وهو القرن الذى ظل يخطو حثيثاً ـ منذ بدايته ـ نحو تمهيد الطرق ، و إتاحة الوسائل ، وتهيئة الظروف ، لكى يعلو صوت الجماهير ، ويُسمع ، ويعمل له حساب .. ألف حساب . أليست هى الجماهير التى تُستشار ، أو تدْلى بأصواتها لتقرر مصير الانتخابات ، وترجح أو تعطل شأناً من الشئون الكُبريات ؟ !. أليست هى ـ عن طريق ممثليها ونوابها فى المجالس النيابية والتشريعية والاستشارية ـ التى توافق على قرار الحرب أو السلام ؟ ،على إصدار القوانين وميزانيات الضرائب والإنفاق،وتراقب السلطة التنفيذية الحاكمة ، فتسألها وتعضدها وتحاسبها؛ فتقْبل منها أو ترفض ؟ !..

هذه واحدة من أبرز معالم القرن .. ثم أخرى : فى النصف الثانى من القرن العشرين برزت ـ بوضوح أكبر ـ ظاهرة غَيرت كثيراً من واقع الحياة ، بل كان لها الأثر المباشر والمتعاظم فى صياغة وتشكيل حياة سكان الأرض ، فى كل مكان .

تقلص دور السياسيين والزعماء والحكام والقادة فى الاستئثار باختيار أسلوب معيشة الناس ، وتوجيههم نحو ما يرون أنه « الأفضل » لهم . هناك أشخاص يحتلون مواقع رسمية ، أو غير رسمية غالباً ، أسماؤهم غير معروفة عادة ، أو يجهلها معظم الناس ، لكنهم يغّيرون فى أنماط وأشكال حياة البشر جميعاً، ويبدِّلون إلى ماهو أبعد من نفوذ الساسة والقادة والموجهين والمربين والآباء . مثلا: الذين صنعوا ثورة الاتصالات والمواصلات ، والذين غمروا الفضاء الجوى بموجات الإذاعة والتليفزيون ، والذين أطلقوا الأقمار الصناعية ، ونشروا محطات فضائية ، وبعثوا بمركبة صغيرة تمشى الهُوَيْنَى على أرض المريخ ، ثم أفادوا البشرية فى تطبيقات علوم الفضاء بالحياة اليومية ، والذين يصنعون الأحلام ويصيغون الخيال

فى أفلام السينما (خاصة العا لمية) ، والذين يفرضون أذواقهم وابتكاراتهم على الأزياء ـ للرجال والنساء والأطفال ـ ويغّيرونها مع الفصول والأعوام ، والذين يعكفون على استحداث أدوية وعقاقير يتلهف على استخدامها ملايين البشر ، لتخفيف الآلام ، أو لجلْب الشفاء ، والذين يستخلصون من البترول ا لمنتجات التى تستعمل فى شتى ا لمجالات ، أو من علوم الذرة والإلكترونيات أدوات شتى ومنافع للناس ، والذين يَغْمرون العالم بمنتجات جديدة ، والذين يكدُّون ويبحثون للحصول على مصادر جديدة للطعام ، وتغذية ملايين الجوعَى ، أو مصادر جديدة للطاقة ، وللعمل ، ولتشغيل العاطلين ، أو مصادر جديدة للترويح عن النفس ، والتخفيف من ضغوط الحياة ... كل هؤلاء يدخلون فى زمرة السادة .. سادة عالم اليوم ، والغد ، رغم أنهم ليسوا زعماء ولا ساسة ، لكنهم يشاركون بقسط وافر فى تشكيل الحياة لكل البشر. تلك بعض إفرازات القرن العشرين ، ومعا لمـه البـارزة ا لمؤثـرة ، التى لهـا ما بعدها .

مباهج الثراء ، وهموم الفقر

عبد الرحمن الرافعى

لا حرج ولا مبالغة فى أن يقال : إن القرن العشرين ـ فى إحدى سماته ـ هو قرن الصحوة .. صحوة الكتل الجماهيرية بعد نوم مزعج طويل ثقيل ، وهوان ساحق مُذل عنيد . والأسباب كثيرة ، تتنوع وتختلف ، لكنها فى النهايـة ـ فى شرق أو غرب ، فى شمال أو جنوب ـ تؤدى إلى نفس النتيجة : ثراء عابث متزايد ، يصحبه ترف شرِه غير عابىء ، وفى ا لمقابل .. فقرٍ عابس متكاثف ، يتبعـه شظف مُهلك لا يـزول . ولنأخـذ مثالا مـن هنـا ، وآخر من هناك...

فى كتابه القَيِّم « فى أعقاب الثورة ا لمصرية » ، يذكر ا لمؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعى ـ فى نهاية الجزء الثانى ـ بعض ملامح الصورة الاجتماعية ا لمصرية فى أوائل هذا القرن ، فيقول : « .. فقد أهمل (الاحتلال البريطانى) الإصلاح الاجتماعى إطلاقاً ، ولم ينفق من الإيرادات العامة شيئاً على هذا